اعداد / أ.د. مختار رحاب

(الدرس5) : موضوع البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية

أولا: البناء الاجتماعي :

الأنثروبولوجيا الاجتماعية هي مصطلح أطلق من قبل التراث البحثي المهيمن من قبل رواد المدرسة البريطانية الذين يؤكدون على دراسة الجماعة، المجتمع، البناء الاجتماعي، التنظيم الاجتماعي، العلاقات الاجتماعية، وقناعتهم بالاستقلال الذاتي للمجال الاجتماعي، وهذا التركيز إذا ما أردنا البحث في خلفيته التاريخية فيمكننا القول أنه نتيجة تأثر رواد الأنثروبولوجيا الاجتماعية في بريطانيا خصوصا البنائيين الوظيفيين منهم بالتراث السوسيولوجي لبعض علماء الاجتماع الفرنسيين وعلى رأسهم إميل دوركايم حيث استفادوا كثيرا من نظرياته حول الظواهر الاجتماعية، ونذكر منهم راد كليف براون، وفورتس.

إن الأنثروبولوجيا أو ما يسمى :"علم الإنسان" إذا أردنا أن نحدد مجالها البحثي، فيمكننا القول أن مجالها البحثي أو التقصي العلمي قائم على دراسة "الإنسان"، وهذا لا يعني أنه لا توجد علوم أخرى تهتم بدراسة الإنسان، فهناك العديد من التخصصات والفروع العلمية تهتم بدراسة الإنسان ليس فقط العلوم الاجتماعية، والعلوم السلوكية، بل حتى بعض فروع العلوم الطبيعية انشغلت بدراسة الإنسان.

فالموضوع البحثي أو المجال الذي تشتغل عليه الأنثروبولوجيا الاجتماعية هو دراسة الحياة الاجتماعية، سواء في المجتمعات البسيطة أو المجتمعات المعاصرة التي تمتاز بالتعقيد، وهذا الأمر الذي انفردت به الأنثروبولوجيا الاجتماعية مقارنة بعلم الاجتماع، والاهتمام بالمجتمعات البسيطة أو البدائية كان محل اهتمام فلاسفة القرن الثامن عشر حيث كانوا ينظرون الى تلك المجتمعات أنها تزودنا بالحالة الطبيعية التي كان يحيا الانسان بمقتضاها قبل أن يصل الى شكل الحياة المدنية والسياسية، ثم جاء تباعا في القرن اللاحق أي القرن التاسع عشر اهتمام علماء الأنثروبولوجيا بهذه المجتمعات خصوصا في سياق مسايرة الفكر التطوري الذي كان سائدا في تلك الفترة، خاصة وأن مركز تفكيرهم كان منصبا على البحث في أصول النظم الاجتماعية.

وظل اهتمام الأنثروبولوجيون متواصلا بدراسة هذه المجتمعات حتى وقتنا الحاضر، فهذه الأخيرة في صورتها البسيطة تساعدنا على فهم المجتمعات المعاصرة، كما أن المقتضى المنطقي في منهجية

اعداد / أ.د. مختار رحاب

البحث يستوجب الانتقال من البسيط ثم دراسة الحالات المعقدة، وكذا دراسة الجزء لفهم الكل، والانتقال من الخاص الى العام.

يرى ايفانز بريتشارد أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية تدرس السلوك الاجتماعي الذي يتخذ في العادة شكل نظم اجتماعية كالعائلة ونسق القرابة والتنظيم السياسي والاجراءات القانونية والعبادات الدينية وغيرها، كما تهتم بدراسة العلاقة بين هذه النظم سواء في المجتمعات المعاصرة أو المجتمعات المسماة تاريخية التي تتوفر عنها معلومات مناسبة من هذا النوع والتي تساعد على القيام بمثل هده الدراسات.1

يهتم هذا الفرع من فروع الانتربولوجيا بتحليل البناء الاجتماعي للمجتمع خصوصا في المراحل الأولى من بدايات الدراسات الحقلية والتركيز على المجتمعات المسماة بدائية، أين تظهر وحدة وتكامل البناء الاجتماعي، وهكذا يرتكز الاهتمام من قبل المختصين في الأنثروبولوجيا الاجتماعية على القطاع الاجتماعي للثقافة بدرجة عالية من الدقة والتفصيل، مع التركيز على إبراز الترابط والتأثير المتبادل بين النظم الاجتماعية. ويرى ايفانز بريتشارد أن الاهتمام يكون بدراسة النظم الاجتماعية كالعائلة و نسق القرابة و التنظيمات السياسية و الإجراءات الضبطية القانونية و العبادات الدينية، و كل السلوكات الاجتماعية المتولدة داخل هذه النظم، كما تدرس الانتربولوجيا الاجتماعية كذلك العلاقة بين النظم الاجتماعية سواء في المجتمعات المعاصرة أو في المجتمعات التاريخية ، التي تتوفر عنها معلومات مناسبة تساعد على القيام بالأبحاث و الدراسات [2].

وفي ما يلي اطلالة سريعة على أبرز الموضوعات البحثية في الأنثروبولوجيا الاجتماعية منذ البدايات الأولى الى وقتنا المعاصر، مع ضرورة الأخذ في الحسبان اختلاف المدارس الأنثروبولوجية واختلاف اهتمامات مؤسسيها و روادها خصوصا الأوائل منهم، وفي هذا الصدد سيتم التركيز على المجالات البحثية لدى الأنثروبولوجيين البريطانيين والفرنسيين، وذلك نظرا لصلات التقارب التفكيري والبحثي، وهذا من خلال التتبع للتراث البحثي لكلا المدرستين.

---

[1] – **ايفانز بريتشارد: الانتربولوجيا الاجتماعية ، منشأة المعارف، القاهرة، 1987.**

[2] – **ايفا نز بريتشارد : المرجع نفسه.**

اعداد / أ.د. مختار رحاب

البناء الاجتماعي :

يرى راد كليف براون أن موضوع البناء الاجتماعي يعتبر من موضوعات البحث الرئيسية التي تشتغل عليها الأنثروبولوجيا الاجتماعية، وكان راد كليف براون قبل خوضه في دراسة موضوع البناء الاجتماعي، قد تأثر الى حد كبير بكتابات" مونتيسكيو" خصوصا في موضوع الرؤية الكلية للنسق الاجتماعي، فوضع الفكرة الأساس لما يسمى بالبناء الاجتماعي، هذه الفكرة التي ألهمت راد كليف براون وطورها من مدلول النسق الى مفهوم البناء.

وفي عام 1940 كان راد كليف براون قد ألقى محاضرة بمعهد الأنثروبولوجيا الملكي كان عنوانها:" حول البناء الاجتماعي On Social Structure" حضرها جمع من الاساتذة والباحثين، استهلها راد كليف براون بعدد من المقدمات المنطقية حول مفهوم البناء الاجتماعي، شكلت في مجملها ملمحا ابستيمولوجيا هاما للأنثروبولوجيا الاجتماعية في بريطانيا، أهم هذه المقدمات الطبيعة الفريدة المتميزة بذاتها للبناء الاجتماعي، وأن وجوده أسبق على وجود الأفراد، يمارس عليهم الزاما في ضوء الهيكل المعقد من الأفكار والأعراف والتحريمات الأخلاقية الموجودة ضمنيا في المعتقدات والأساطير والممارسات الخاصة بالمجتمع، وكان قد أعطى للبناء الاجتماعي الأولوية المطلقة في تنظيم سلوك الأفراد، ولم يعر أهمية كبيرة للتعارض الذي قد يحصل بين البناء الاجتماعي وأي مظهر من مظاهر حرية الأفراد.([3])

ونجد أن كلمة بناء "Structure" تحدد مدلولها في بداية الأمر وبصفة أكثر وضوحا في مجال علم التشريح Anatomy عند دراسة الكائنات العضوية الحية، حيث يكون البناء أو التركيب في صورة كلية يتولد من خلالها جسم الانسان، هذا الأخير بناؤه الكلي يتكون من أعضاء يقوم كل عضو منها بأداء وظيفة معينة، وتظل هذه الأخيرة ضامنة لتحقيق استمرارية البناء الكلي من خلال ما تؤديه من دور، وهذا الأخير لا يتحقق لأي عضو الا ضمن حالة التناغم مع الكل، والذي يظل العضو يشكل جزء منه، ويكاد ينطبق المدلول ذاته على مختلف الأشكال والنماذج المادية.

وفي مجال الحياة الاجتماعية نجد الأمر يختلف في بعض الطروحات، حتى وان تشابه الأمر وحصلت المماثلة في بعض الجوانب، ففي هذا المجال نجد مع لفظة بناء ما يسمى" الاجتماعي" وبالتالي

---

[3] – الفريد راد كليف براون: في البناء الاجتماعي، ترجمة عبد الحميد الزين 1960.

اعداد / أ.د. مختار رحاب

:" فالبناء الاجتماعي" قد يتضمن الأفراد، النظام، العلاقات، العادات والتي تتظافر وتتحد جميعا ليتحقق وجود الجماعة وفق نظام في اطار من العلاقات، وفق مظاهر التكرار والاستمرار مع بعض من حالات التغير، مما يضمن ديناميكية الحياة الاجتماعية ضمن البناء الاجتماعي.

وفي هذا السياق يرى مالينوفسكي أنه اذا أردنا فهم مجريات الحياة داخل المجتمع لا بد من التركيز على أجزاء المكون للبناء، ومن خلال الأبحاث التي أجراها مالينوفسكي توصل الى قناعة مفادها:" بأنه يمكن للمجتمع أن يفهم من خلال الطريقة الكلية، كوحدة للأجزاء المظفورة مع بعضها البعض، وينبغي للتحليل أن يكون تزامنيا ".

وفي اطار تأثر راد كليف براون بالتراث الدوركايمي، فقد تمكن في اطار مقولة الاجتماعي التي جاء بها ايميل دوروكايم، أن يحدد ويفسر البناء الاجتماعي برؤية جديدة، حيث يرى أن لكل مجتمع تركيب اجتماعي، وهذا الأخير هو الذي نطلق عنه لفظة: "بناء" ويتشكل هذا التركيب من الذوات الاجتماعية المنبثقة عن تفاعل الأفراد فيما بينهم، وما يترتب عنها من علاقات، وما ينشأ بموجبها من روابط، وهذه العلاقات والروابط هي جوهر أو روح البناء الاجتماعي، ويندرج تحت هذا المفهوم كل العلاقات الاجتماعية التي تقوم بين شخصين فأكثر كما يدخل في السياق التمايز بين الأفراد والشرائح والطبقات على اختلاف رتبها وتعدد مستوياتها.[4]

وكان راد كليف براون قد ميز بين البناء الواقعي والبناء الصوري أو " الصورة البنائية للمجتمع "الذي يتشكل بواسطة الصور البنائية، ومدلول البناء الواقعي هو الاهتمام بدراسة الأجزاء أو الوحدات، وعند القيام بالدراسة الميدانية من خلال اعتماد الملاحظة المباشرة كأن نركز على دراسة مسألة النسب أو الميراث في مجتمع معين، فيمكن التعبير عن هذه القضايا بصيغ احصائية منفصلة، ولكن هذه المسألة التي يمكن اخضاعها للملاحظة المباشرة، يمكن أن تبرز لنا حقيقة جزئية ضمن نطاق العلاقات العامة داخل تلك الجماعة أو المجتمع، كما يمكن أن تشكل وجها للتشابه أو الاختلاف بين الجماعات والمجتمعات، وهذه هي الصور البنائية التي تفرض قوانين عامة وصارمة ضمن مجتمعات معينة من حيث نسق القرابة ونظام الزواج، وقوانين الملكية وقواعد الميراث.

4- الفريد راد كليف براون: المرجع السابق

وفي هذا السياق يقول راد كليف براون:" فالملاحظة المباشرة تبرز لنا أن تلك الكائنات البشرية ترتبط ببعضها البعض ضمن شبكة معقدة من العلاقات الاجتماعية، واستخدام لفظ:" البناء الاجتماعي" هو للتعبير عن هذه العلاقات بالفعل، وهذا البناء الاجتماعي هو ما أعتبره موضوعا لدراستي اذا ما أردت أن أكون من علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية، وليس من علماء الاثنولوجيا أو السيكولوجيا، وليس مدلول كلامي أن دراسة البناء الاجتماعي هو كل الأنثروبولوجيا الاجتماعية، غير أني أنظر اليه بعين الاهتمام البالغ على اعتبار أن دراسته هي جزء من ذلك العلم.[5]

وعليه فالبناء الواقعي حسب راد كليف براون هو اخضاع الأجزاء الموجودة عينا وفعلا للملاحظة المباشرة، وعليه امكانية فهمها تكميما واحصاء أو تأويلا، أي امكانية اخضاعها للقياس أو الوصف المباشر وفق أدوات وآليات جمع البيانات الميدانية، وفق ارادة وفنيات الباحث الأنثروبولوجي المتمكن من معايشة الظاهرة.

ويرى راد كليف براون أن المظاهر الاجتماعية ضمن المجتمع التي يمكن اخضاعها للتحليل الأنثروبولوجي هي تلك المظاهر التي تقبل التجريد في الصور البنائية للمجتمع، وهذه الأخيرة هي تلك القواعد والنماذج الموجودة على مستوى التجريد، والباحث الأنثروبولوجي عند دراسته للبناء الاجتماعي حسب راد كليف براون عليه أن يستخلص ويستقرئ الصورة البنائية" من البناء الواقعي، والعمل على قراءة وتحليل محددات هذه الصورة البنائية وفقا للبناء الاجتماعي الواقعي للمجتمع.

فالبناء عند راد كليف براون واقع عياني ملموس، أي أنها موجودة بالفعل وخاضعة للمعاينة المباشرة، وهذا ما يميزها عن كيان آخر أكثر تجريدا يسميه:" الشكل البنياني أو البنائي" حيث لا تبدو الا العلاقات الدائمة والمستمرة، أي ثوابت البناء أو البنية، ويقول راد كليف براون في هذا الصدد:" ان الجسم المتعضي يجدد بنيته باستمرار طيلة حياته، وكذلك الأمر بالنسبة لحياة المجتمع، هكذا تتغير العلاقات الفعلية بين الأشخاص والجماعات من عام الى عام أو من يوم الى يوم، فيدخل في عداد الطائفة الواحدة أعضاء جدد بفعل ولادتهم أو انتمائهم اليها، ويخرج منها أعضاء بفعل موتهم أو اغترابهم، كما أن هناك زواجات وطلاقات.... ولكن في حين أن البنية الفعلية تتغير يستطيع **الشكل البنياني العام** أن يظل ثابتا الى حد ما ....([6])

---

[5]- **قباري محمد اسماعيل: راد كليف براون، راد كليف براون، منشأة المعارف، بالإسكندرية .1996.**

[6]- **راد كليف براون : المرجع السابق.**

اعداد / أ.د. مختار رحاب

ان راد كليف براون يقصد بالبناء الاجتماعي كل العلاقات الاجتماعية التي تقوم بين شخص وآخر يمكن اعتبارها جزءا من البناء الاجتماعي، فالبناء القرابي لأي مجتمع مثلا يتكون من عدد من تلك العلاقات الثنائية كالعلاقة بين الأب والابن، أو بين الخال وابن الأخت ويقوم البناء الاجتماعي كله عند القبائل الاسترالية على شبكة من مثل هذه العلاقات الثنائية التي تنشأ عن طريق روابط النسب أو المصاهرة، بالإضافة الى ما سبق فراد كليف براون يدخل تحت البناء الاجتماعي التمايز القائم بين الأفراد والطبقات بحسب أدوارهم الاجتماعية، فاختلاف المركز الاجتماعي بين الرجل والمرأة أو بين الرئيس والعامة أو بين صاحب العمل والعمال والموظفين أمر لا يقل أهمية في تحديد العلاقات الاجتماعية في اختلاف العشيرة أو الدولة التي ينتمي المرء اليها. ([7])

ومن خصائص البناء الاجتماعي حسب راد كليف براون أنه يتكون من مجموعة وحدات تختلف من حيث الحجم والوظيفة وفق مايلي:

- البناء الاجتماعي يتكون من أنماط العلاقات الاجتماعية.
- البناء الاجتماعي كل أو نسيج متشابك الأجزاء.
- البناء الاجتماعي مستقر ومستمر ولكنه ليس جامدا أو خالدا.

وفي فترة لاحقة و في احدى محاضراته حول الأنثروبولوجيا الاجتماعية يذكر تلميذ راد كليف براون ايفانز بريتشارد أن من الموضوعات التي تهتم الأنثروبولوجيا الاجتماعية خصوصا في بريطانيا بدراستها هو دراسة السلوك الاجتماعي الذي يتّخذ في العادة شكل نظم اجتماعية كالعائلة، ونسق القرابة، والتنظيم السياسي، والإجراءات القانونية، والعبادات الدينية، وغيرها. كما تدرس العلاقة بين هذه النظم سواء في المجتمعات المعاصرة أو في المجتمعات التاريخية، التي يوجد لدينا عنها معلومات مناسبة من هذا النوع، يمكن معها القيام بمثل هذه الدراسات .([8])

فالبناء الاجتماعي إذن، هو التعبير التقني الأنثروبولوجي الذي يدلّ على المظهر الأساسي في حياة الجماعة الإنسانية، وهو يشمل النظم التي تؤلّف إطاراً لأنواع السلوك جميعها، سواء كان فردياً أو اجتماعياً.([9])

---

[7]- **قباري محمد اسماعيل: راد كليف براون. مرجع سابق.**

[8]- **ايفانز بريتشارد: مرجع سابق .**

9- **هرسكوفيتز ميلفيل، أسس الأنتروبولوجيا الثقافية ،1974.**

وحسب رالف لنتون تعدّ هنا تصنيفات المؤسّسات والأنظمة الاجتماعية، أدوات نافعة للأغراض الوصفية، كما أنّ التعميمات بالنسبة للعلاقات المتداخلة والمتبادلة بين النماذج والمؤسّسات، تساعد في الاهتداء إلى نوع من النظام وسط أوضاع تبدو مشوّشة وغامضة، وفي زيادة الفهم الحقيقي للعمليات الاجتماعية. وفي الوقت ذاته، يعتمد هذا الفهم على دراسة النسق الكلّي الذي يؤلّف النظام الاجتماعي جزءاً منه. ويضمّ هذا النسق ثلاثة عناصر متميّزة، هي : شخصيّات الأفراد الذين يؤلّفون المجتمع، والبيئة الطبيعية التي يتعيّن على المجتمع أن يكيّف حياته وثقافته معها، وأخيراً المجموعة الكاملة من الوسائل الفنيّة اللازمة للمعيشة، التي تضمن استمرار بقاء المجتمع عن طريق نقلها من جيل إلى جيل([10])، واليه يعود الفضل في نشر استخدام مفهومي :" المكانة" و"الدور" في أمريكا.

وقد وقع اختلاف بين الأنثروبولوجيين الاجتماعيين حول محددات البناء الاجتماعي، فبعضهم حددها بالنظم الاجتماعية، بينما حدد ايفانز بريتشارد البناء الاجتماعي وفق الجانب المورفولوجي للمجتمع أي الجماعات التي يتكون منها المجتمع والعلاقات السائدة بينها.

وحسب راد كليف براون فالبناء الاجتماعي هو الجماعات الاجتماعية المستمرة في الوجود لوقت كاف، بشرط أن تكون لها القدرة على الحفاظ على ديمومة كينونتها واستمرارها كجماعات رغم التغيرات التي تحدث للأفراد الذين يكونون تلك الجماعات. وكانت دراسة البناء الاجتماعي من قبل راد كليف براون هي أساس نظرياته، وكان قد تأثر بآراء ومنهجية ايميل دوركايم بشكل كبير، المجال المتاح لا يسمح بالتفصيل أكثر، وفي فترة لاحقة خالف العديد من الأنثروبولوجيين آراء راد كليف براون حول موضوع البناء الاجتماعي على غرار الأنثروبولوجي الفرنسي كلود ليفي ستروس، وايدموند ليتش.

10- لينتون، رالف : الأنثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث. بيروت، لبنان، 1990.